

ثمرات الإيمان

الشيخ د. يونس صالح

19 فبراير 2009

22 صفر 1430

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد .. أيها الإخوة الكرام ها قد عدنا والعود أحمد فلقد تحدثنا في جمعات مضة عن حديث جبريل مع الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم وذاك الجو الحميم المملوء بالأدب الجم والعلم الغزير ، لقد تحدثنا عن الإسلام وعالمية الإسلام وأركان الإسلام واليوم نكمل الحديث ونتحدث عن الإيمان ولن أبدأ الحديث عن حقيقة الإيمان وأركانه وإنما أبدأ بالحديث عن ثمرات الإيمان .

معشر المسلمين، للإيمان إذا ما تمكن في القلب آثار على صاحبه، فليس الإيمان بالأمر الهين في حياة الإنسان، بل هو انقلاب في كيان الإنسان يجعله لا يسير في هذه الحياة إلا وفق ما يمليه عليه هذا الإيمان وما يقتضيه، فلا قيمة لحياة الإنسان بدون إيمان، الإنسان بلا إيمان بالغيبات العظمى وبلا تمكن للإسلام في قلبه يصير كالوحش الأعجم لا تهمة إلا مصلحته، والمجتمع بلا إيمان غابة يأكل فيها القوي الضعيف وتضيع فيها الحقوق، فالإيمان هو صمام الأمان لأي مجتمع ورابطة قوية تجمع أفرادها، الإيمان يجعل المؤمن يؤدي ما عليه لا خوفاً من قانون أو عقاب دنيوي، بل لأنه يعلم أن الله يراه وأنه سيجازيه إن أحسن أو أساء، وآثار الإيمان عظيمة كثيرة نذكر بعضها منها.

من أهم آثار الإيمان ثقة المؤمن بما عنده ثقة كاملة ليس محتاجا معها إلى إعادة نظر أو تغيير مواقف، يقول سبحانه موجهها الخطاب لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِن الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57]، هكذا بكل وضوح: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، هذا هو الإيمان، أن يكون المؤمن على بينة من ربه، فإذا كان على بينة فإن إيمانه يكون كالجبل الراسي الضارب بجذوره في الأرض، لا يضطرب اليقين عنده ولا تختل الموازين، وهذا ما كان من سيد المرسلين ﷺ في ثباته على الإيمان، حتى عندما أرادت قریش أن تغريه وأن تستميله وأن تحيد به عن إيمانه بعرض المغريات التي يسيل لها لعاب أي بشر أبى؛ لأنها البينة من الله، ولأنه الإيمان ملأ القلب ولم يترك فيه مساحة لمتاع الدنيا الزائل فرد، عليهم وعلى عرضهم بكلمات من كتاب الله تجبه باطلهم وتدمغه فإذا هو زاهق، تلا

﴿على عتبة بن ربيعة الذي أرسلته قريش ليعرض على رسول الله جميع المغريات من منصب ومال ونساء على أن يترك دعوته، تلا عليه بداية سورة فصلت: ﴿حَمَّ تَتَزِيلُ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:1-

13]، فزلزلت هذه الآيات وهذا النذير كيان عتبة، فما كان منه إلا أن وضع يده على فم رسول الله ﷺ، وقال: ناشدتك الله والرحم أن تكف، ورجع إلى قومه بغير الوجه الذي جاء به. فالمؤمن — أيها المسلمون — لا خيار عنده في إيمانه بربه وبدينه وبنبيه، وليست هذه الأصول العظيمة محل نقاش عنده.

ومن آثار الإيمان أنه يغير النفوس التي يصعب تغييرها، فبينما الإنسان في غي وجهل وشرك إذا بنور اليقين وقوة الحجة وتوفيق رب العالمين تغمر العقل والنفس، وإذا ببشاشة الإيمان تخالط شغاف القلب، فيتغير القلب غير الذي كان، ويعود الإنسان سويًا على الفطرة كما كان، وهذا ما سرده علينا القرآن من حال سحرة فرعون، فبينما هم سحرة ينصرون الباطل ويدورون في فلكه وينافحون من أجل إعلاء كلمته إذا هم مؤمنون صادقون يبذلون الأنفس دون عقيدتهم وإيمانهم، ويسجدون لرب العالمين لما رأوا الحجة البينة بعد أن كان سجودهم لفرعون، يقول سبحانه: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ قَالَ آمَنْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذِنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَئِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:70-73].

ومن آثار الإيمان البعد عن المعاصي وقياس الشهوات وعاقبتها بميزان الآخرة لا بميزان الدنيا، فالمتذبذب إذا قابلته إحدى الشهوات وتوفرت لها الأسباب غابت رقابة الله في قلبه وخارت قواه وأقبل على الشهوة وورد ماءها ونهل منها، وبعد اقتراف المعصية يصحو ويدرك ما فعل، أما المؤمن الحق فإنه يقابل الشهوة بقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:23]، يقابلها بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام:15]. المؤمن يتصور حسرة المعاصي وأثرها قبل أن يقع فيها فيبتعد عنها وينجو بجلده ليسلم له دينه وتصفو نفسه، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:7-10].

هذا هو المؤمن الحق يسعى في الطاعة ويخاف المعصية ويراقب نفسه في كل صغيرة وكبيرة، وتورقه الذنوب إذا قارفها أو اقترب منها، يرى المعصية عظيمة مهما صغرت، وهذا من أهم ما يميز به المؤمن عن غيره، ومن أهم ما يساعده على بلوغ مرضاة الله، فالمؤمن يرى ذنبه كجبل فوقه يخشى أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه فأطاره بيده. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه كما عند البخاري وأحمد: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدّها على عهد النبي صلى الله عليه وآله من الموبقات.

ومن آثار الإيمان الثقة بموعود الله سبحانه والثقة بنصره وتأييده، حتى يرى المؤمن المحنة منحة والكربة قربة، فلا تزيده الشدائد إلا ثقة بالرب عز وجل، وأعظم من علم الناس هذا الدرس وهذه المفاهيم الإيمانية العظيمة سيد الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وآله، يقول الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وآله عندما كان في الغار مع رفيقه الصديق والمشركون على باب الغار، يقول سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:40]، فكيف يحزن من يعلم أن الله معه يكلؤه ويحميه ويحفظه؟! أخرج الترمذي عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وآله ونحن في الغار: لو أن أحدهم ينظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال: ((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!)).

هذا ما يفعل الإيمان بأهله، وهكذا يكونون إذا اشتد الأمر وادلهم الخطب، بل إنه صلى الله عليه وآله كان إذا تحسس الخطر لم يهرع إلا إلى الله، وقال وانقأ: ((حسبنا الله ونعم الوكيل))، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وآله حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) رواه البخاري.

هذه — إخوة الإيمان — بعض الآثار والثمار الإيمانية، فاتقوا الله وكونوا مع المؤمنين حتى تتألوا كرامة الإيمان وجائزته، واعلموا أن الله يحب المؤمنين، بل ويغار عليهم سبحانه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ((إن الله تعالى يغار، وإن المؤمن يغار، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه)) متفق عليه.

فاللهم يا أرحم الراحمين ويا رب العالمين، احفظ لنا إيماننا وثبتنا عليه، وقونا على فعل الخير وترك الشر يا رب العالمين. اللهم لا حول لنا ولا قوة إلا بك، فلا تتركنا لأنفسنا...